الأمثال العربية

تعبير صادق لحكمة العرب وفلسفتهم ومرآة صافية لمدى بلاغتهم في أقوالهم

«وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون»
صدق الله العظيم

للأستاذ جعفر الخليلي

المثل هو الشبه والنظير، والصفة والحديث. وهو القول السائر بين الناس الممثل بمضربه، أي الحالة الأصلية التي ورد فيها الكلام، وألفاظ الأمثال لا تغير تذكيراً، وتأنيثاً، وأفراداً، وتثنية، وجمعا، بل ينظر إليها دائماً لمورد المثل أي أصله، وهو العبرة والحجة كما تقول كتب اللغة. والمثل في الاصطلاح العام المفهوم: خلاصة ما يتوصل إليه المفكر من اعمال فكره في الحوادث والوقائع، وسنن الطبيعة، والسيرة التي تصلح أن تكون قاعدة من قواعد الحياة وتسفر عن العظة، أو الدرس والتنبيه، والحذر، والسلوك الحسن بين الناس وبين المرء ظاهره وباطنه ثم هي زينة يوشّي بها أئمة الأدب أقوالهم، والعقلاء أفعالهم. ومن اتساع معاني الأمثال أن كثرت التعاريف للأمثال عند اللغويين وفطاحل أهل الأدب.

وقد ذكر ابن العربي أن (المثل بفتح الميم والثاء) والمثل (بكسر الميم وفتح الثاء) عبارة عن تشابه المعاني المعقولة، وأن المثل (بكسر فسكون) عبارة عن تشابه الأشخاص المحسوسة، وقد يدخل أحدهما على الآخر، كما ورد في مقدمة كتاب الأمثال للميداني بتحقيق سعيد محمد نمر الخطيب.

ونقل الميداني عن المبرد (أن المثل قول سائر يشبّه به حال الثاني بالأول، مأخوذ من (المثال) والأصل فيه التشبيه، فقولهم: (مَثُل بين يديه) أي وقف مشبّهاً الصورة المنتصبة، وفلان أمثل من فلان أي أشبه بما له من الفضل).

ومن شروط التشبيه أن يكون المشبه به أجلى وأوضح وأبلغ من المشبّه لكي يكون مثلاً، وقد عابوا القائل على قوله:

كأننا والماء من حولنا   قومٌ جلوس حولهم ماء

ومن البدهيات أن هذا القائل حين أراد أن يشبّه مجلسهم لم يجد مثلاً أبلغ ولا أحسن من أن يعيد القول نفسه فيشبه مجلسهم من الماء بمجلسهم من الماء نفسه، ولكن قوله هذا لم يكن مقبولاً فقالوا في أمثاله (وفسّروا الماء بعد الجهد بالماء) وأصبح قولهم هذا من الأمثال السائرة.

ويقرر أبو هلال العسكري المتوفي سنة ٣٩٥هـ (أن كل كلمة وحكمة سائرة تسمى مثلاً، وقد يأتي القائل بما يحسن من الكلام أن يتمثل به إلا أنه لا يتفق أن يسير فلا يكون مثلاً) المصدر المتقدم نقلاً عن جمهرة الأمثال.

قال ابراهيم النظام: (يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام:

١ ـ إيجاز اللفظ.
٢ ـ إصابة المعنى.
٣ ـ حسن التشبيه.
٤ ـ جودة الكناية، فهو نهاية البلاغة. مقدمة الأمثال في القرآن لابن قيم الجوزي.

وقد نقلها الشيخ ابراهيم الطرابلسي الحنفي المتوفىٰ أخيراً في أرجوزته (فرائد اللآلي) لأمثال الميداني فقال:

واجتمعت أربعة في المثل   منها سواء قد خلا كُل جلي
إيجاز لفظ، وإصابةٌ لما   عُني، وتشبيهٌ بحسن رسما
رابع هذي، جودة الكناية   بها البليغ أدرك النهاية

تحقيق سعيد نمر الخطيب.

وقال ابن المقفع: (إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعب الحديث).

ومثله ما جاء في كتاب (الأمثال العربية ومصادرها في التراث) عن ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٨هـ (أن الأمثال التي هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ آنق من الشعر، وأترف من الخطابة، لم يسر شيءٌ مسيرها، ولا عمّ عمومها حتى قيل (أسير من مثل) وقد قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر   يعرفه الجاهل والخابر

كما أنه أبلغ من الحكمة، وأقوى على التعبير وأوضح للمنطق).

ونرى أن المثل في الشعر أوقع في النفس، وأبلغ في السمع، وأن ابن عبد ربه لم يرد هنا بالشعر إلا الشعر الذي خلا من الأمثال، وهنا فضّل المثل على مِثْلِ هذا الشعر.

وقال أبو هلال العسكري (أصل المثل من التماثل بين الشيئين في الكلام كقولهم (كما تدين تدان) وهو من قولك هذا مِثْلُ الشيء ومثله كما يقوله شبيهه وشبهه، ثم جعل كل حكمة سائرة مثلاً، وضرب المثل جعله يسير في البلاد، من قولك ضرب الأرض أي إذا سار فيها).

وقالوا (المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، وهذا ما يؤكده ابن عرفة في قوله ضَرْبُ الأمثال اعتبار الشيء بغيره ـ وقوله تعالى (واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية) وقال ابن اسحق معناه اذكر لهم مثلاً. أخرجه محمد أبو صوفة.

وفي المناظرة بين النعمان بن المنذر وكسرى أنو شيروان التي أوردها أبو صوفة في كتابه شاهداً قال النعمان لكسرى: وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها.

قال كسرى ـ بماذا؟

قال النعمان: بعزها، ومنعها، وحسن وجوهها، وبأسها، وسخائها، وحكمة ألسنتها.

وأما حكمة ألسنتهم، فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم، ورونق كلامهم وحسنه، ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم بالأشياء، وضربهم الأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس.

ويقول الفارابي المتوفى سنة ٣٥٠هـ (المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه حتى ابتذلوه فيما بينهم وفاهوا به في السراء والضراء واستدروا به المجتمع من الدرر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكرب والمكربة، وهو من أبلغ الحكمة، لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة) ويضيف محمد أبو صوفة ويقول:

أما المرزوقي المتوفى سنة ٤٢١هـ فيرى في كتابه شرح الفصيح (أن المثل جملة في القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها تتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول فتنتقل عما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير في لفظها، وعما يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها).

وغير هذا من التعريف بالأمثال على ألسنة أئمة الأدب والعارفين بمضامين الألفاظ واللغة الشيء الكثير الذي اكتفينا فيه بما أوردناه، ولم يعد الاهتمام بالأمثال في عصرنا الحديث مقتصراً على الأدب وإنما أصبحت الأمثال من المصادر المهمة عند علماء النفس وعلماء الاجتماع. ولعل الأمثال العربية من أوائل ما وضعت الحجر الأساسي في بناء التنشئة، ومن أوائل ما ميزت بين الغرائز والأخلاق المكتسبة في المجتمع، فقد جاء في أمثال العرب قولهم في الأخلاق المكتسبة

من شبَّ على شيء شاب عليه

وقالوا ـ (نفس عصام سوّدت عصاما) وليست المقادير هي التي سوّدت عصاما على قومه وجعلته كبيراً بمعناه، ولا عبرة بالمصادفة والمقدرات فإنها لا تصلح أن تكون قاعدة، وزادوا على ذلك فقالوا،

والنفس كالطفل أن تُهْمِلْه شبَّ على   حب الرضاع وان تفطِمْهُ ينفطمِ

وأحسن مثل للغريزة التي لا تتغير ولا تتبدل تتجلى في قول الشاعر إذ يقول:

أنت لو حِكْتَ للحمار رداء　　من خيوط الياقوتة الحمراء
ثم صغتَ التبرَ المصفّى لجاماً　　وبذاك اعتنيتَ أي اعتناء
وإذا ما عَلَفتَهُ اللوزَ رطباً　　بدلاً من شعيره والماء
وعن التبن لوتخذت عليقاً　　قصب السكر اللذيذ الغذاء
لم يزل ذلك الحمار حماراً　　هكذا قُلْ طبيعة الأشياء

هل المثل قاعدة عامة. غير مخزومة؟

والمثل في محلّه قاعدة ثابتة لا تقبل النقض ولا تحيد عن الواقع، فحين ينتصر الحق على الباطل تستطيع أن تجزم قائلاً: (الحق يعلو ولا يُعْلى عليه)، ولكنك في محل آخر وواقع مخالف لذلك فبإمكانك أن تقول (ما انتصر الحق مرة إلا وكان الباطل قد انتصر عشر مرات وأكثر) وحين يجيء الولد مشابهاً لأبيه في شأن من الشئون فإن المثل قاعدة مطردة إذا قلت (إن الولد على سرّ أبيه) أما إذا شابه الولد أمه وأباه فسيكون المثل حينذاك (الولد على سرّ أبويه) أو أن نقول (ومن يشابه أبويه فما ظلم) وستكون الجملة نثراً وليست شطراً لبيت من الشعر كما هو عليه المثل.

الأمثال العربية في التاريخ

ويغلب على الظن أن ظهور الأمثال على الألسن بدأت بظهور الشعر العربي في الجزيرة، لأن مبدأ تاريخ الأدب لم يكن يعني شيئاً غير الشعر، والسبب في ذلك هو أن القراءة والكتابة لم تكن شائعة في الجزيرة باستثناء القليل ممن كان يمارسها في بعض المدن مثل مكة المكرمة. والمدينة المنورة وصنعاء والبحرين، وكل ما كان هناك من الوسائل لرواج الشعر وتداول اللغة كان محصوراً بالندوات والأسواق، ومجالس السمر في بيوت الشيوخ ورؤساء القبائل، وانتشر الشعر أول ما انتشر يحكي جانباً من حياة القبائل والسكان، ويصوّر ما استطاع من جوانب الأدب العربي ومميزاته ومنها الأمثلة في الشعر والخطب والحكاية من النثر، وتاريخ الشعر الذي بدأ به تاريخ الأدب لا يبعد أكثر من قرن واحد وبضعة عقود قبل ظهور الإسلام؛ لأن التواتر في رواية الشعر كان قد انعدم وجوده قبل القرن الخامس الميلادي ويقول (كوستاف فون كرون باوم) بأن أول مجموعة

كان ينتسب شعراؤها جميعاً إلى قبيلة (قيس بن ثعلبة) من بكر بن وائل وكان يعود تاريخها إلى أربعمائة وأربعين سنة من الميلاد، وقبل ذلك لم يصل إلينا أدب ولا شعر لكي ندرس عليه النواحي الأدبية العامة والأمثال بصورة خاصة (عن موجز لتاريخ الأدب العربي ـ تأليف جعفر الخليلي ـ مخطوط).

وأول كتاب حوى طرائف من الأمثال البليغة التي لم يضاهها مثل من الأمثال العربية ولم يسبقها سابق في السبك والإيجاز كان القرآن المجيد الذي عني بالمثل عناية خاصة تكفي لرفع أهمية المثل وقيمته في ميدان الثقافة العامة..

أمثال القرآن

ولقد تضمنت الأمثال في القرآن جميع النواحي والفصول، والصفات، وما أشار إليه الحكماء والبلغاء من تعريف للمثل من الحكمة، والموعظة، والتشبيه والتنبيه، بمختلف الصور حتى بصورة الشعر كقول الله تعالى: (ما أنت إلا بشر مثلنا) سورة الشعراء ـ الآية ١٨٦ وكقوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) سورة آل عمران ٨٦ وقد ضمّن أحد الشعراء هذه الآية في بيت قال فيه:

إن في القرآن بيتاً   فيه للعشّاق طِبٌّ
(لن تنالوا البرّ حتى   تنفقوا مما تحبوا)

ويعدّ حذف النون هنا في قوله (تحبوا) من الاكتفاء في علم البديع.

وفي القرآن من الأمثلة المتنوعة من حيث اللفظ والمعنى الشيء الكثير لمختلف الأغراض الدنيوية والأخروية وقد حصر الأستاذ سعيد محمد نمر الخطيب في تحقيقه لكتاب ابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ الآيات التي جاء فيها ذكر للمثل ومشتقاته فكانت ١٦٢ آية، أما الأمثال الأخرى فإنها من الكثرة بحيث يتعذر حصرها بسهولة.

ويقول ابن قيم الجوزي على لسان أحد تلامذته: (إن في القرآن أمثالاً وأن أمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون) مشيراً بذلك إلى قوله تعالى: وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون.

ويقول محقق (كتاب الأمثال في القرآن) إن كثيراً من الأمثال وإن اختلفت ألفاظها

فهي مأخوذة من القرآن من قبيل قولك (القتل أنفى للقتل) فهو مأخوذ من قوله تعالى (ولكم في القصاص حياة) وقولك (ما تزرع تحصد) مأخوذ من قوله تعالى (من يعمل سوءا يجز به) وقولك (الحمية رأس الدواء) مأخوذ من قوله تعالى (كلوا واشربوا ولا تسرفوا)، وهذه بعض أمثال القرآن نوردها هنا كنماذج لمختلف الأغراض.

يقول الله تعالى: (ولا تزر وازرة وزر أخرى) سورة الأنعام ـ الآية ١٦٤.

ويقول (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله) آل عمران ـ الآية ١٤٠هـ.

وقوله تعالى (ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء) سورة ابراهيم ـ الآية ٢٩.

وقوله تعالى: (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صِرٌّ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم) آل عمران ـ الآية ١١٧.

وقوله تعالى (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به)، سورة النحل ـ الآية ١٤٦.

وقال تعالى: (ولا ينبئك مثل خبير) سورة الفاطر ـ الآية ١٤.

وقال عز وجل (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلّة) يونس ـ ٢٧.

وقال (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) سورة الفاطر ـ الآية ٤١.

وقوله تعالى (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهثْ أو تتركْه يلهثْ) الأعراف ـ ١٧٦.

وقال عز وجل (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم) سورة ياسين ـ الآية ٧٨.

وقوله: (وما يذكر إلا أولوا الألباب) سورة آل عمران ـ الآية ٤.

وقوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا) سورة الجمعة ـ الآية ٥.

وقوله (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري) سورة النور ـ الآية ٣٥.

وقوله (زُيِّن للناس حب الشهوات) آل عمران ـ الآية ١٤.

وقال تعالى: (ووفِّيت كل نفس ما كسبت) آل عمران ـ الآية ٢٤.

وقوله: (صِبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) سورة البقرة ـ الآية ١٣٢.

وقوله: (وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) سورة البقرة ـ الآية ١٤١.

وقوله: (فاذكروني أذكرْكم) البقرة ـ الآية ١٤٧.

وقوله تعالى: (والفتنة أشد من القتل) سورة البقرة الآية ١٨٧.

وقوله (ضُربت عليهم الذلة أينما ثُقفوا) سورة آل عمران ـ الآية ١٠٨.

وقوله تعالى (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

ونحسب ما استخرجناه هنا من القرآن الكريم كاف للتعبير عما يضمّ القرآن من حكَم، وتشبيه، وحجة، وتحذير من الأمثال البليغة التي غطّت على جميع الأمثال من حيث الإيجاز والبلاغة، وقد يفوت الإنسان إمعان النظر بسبب العجلة فلا يفهم المثل بحقيقته، وإني لأذكر يوماً كنت مدعواً على مائدة السيد ضياء الطباطبائي بمزرعته وكان السيد ضياء كما لا يخفي رئيساً للوزارة ذات يوم. كما كان سكرتيراً للمؤتمر الإسلامي الأعلى بالقدس وكان قد عاد من المنفى وتولى زراعة هذه الأرض التي كانت بوراً فجعل منها جنة في زمن قصير، وجاء الحديث عن الأرض حين تلقى العناية الكافية وأرانا أكياساً من الحبوب كل كيس كان حاصل حبة واحدة ومن جملتها كان كيس يعد ثلاثة آلاف حبة ومئات أو عشرات نسيت عددها قال إنها حاصل حبة واحدة من القمح، فقلت أنا: إنه أمر عجيب ولكن كيف نستطيع أن نوفق بين هذه التجربة وقول الله تعالى إذ يقول:

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة) سورة البقرة ـ الآية ٢٦١ وقد جعل الله غاية المحصول للحبة الواحدة سبعمائة حبة!!!

فرد عليّ السيد الطباطبائي وقال: ما أظنك إلا ساهياً عن تكملة الآية الكريمة فلم تتم قراءة قوله تعالى (والله يضاعف لمن يشاء).

الجمع والتأليف لأمثال القرآن

وعى المؤرخون والمعنيون بالأدب وفصوله ما في القرآن من الأمثال والروائع الفكرية متأخراً عن جمعهم للأمثال العربية، ولذلك لم نعرف كتاباً اختص بأمثال القرآن قبل القرن الرابع وهو العصر الذهبي من حيث ازدهار العلوم والأدب، في حين أن الاهتمام بالأمثال العامة قد بدأ في حوالي منتصف القرن الأول الهجري.

وقد تتبع محقق كتاب (الأمثال في القرآن الكريم) لابن القيم المتوفي سنة ٧٥١هـ فحصر الكتب والمصادر التي اختصت بأمثال القرآن في بضعة كتب كان أبعدها تأريخاً هو (أمثال القرآن) للجنيد بن محمد القواريري المتوفى سنة ٢٩٨هـ الموشك على ابتداء القرن الرابع.

و(أمثال القرآن) لنفطويه المتوفى سنة ٣٢٣هـ و(أمثال القرآن) لمحمد بن الحسين السلمي المتوفى سنة ٤١٢هـ. و(رسالة في أمثال القرآن مع شرح روضات الأمثال - لأحمد بن عبدالله الكوزكفاني، ولم تعين سنة وفاته، وقد طبع بفارس سنة ١٣٢٤هـ، و(الأمثال في القرآن الكريم) لابن قيم الجوزي المتوفى سنة ٧٥١هـ بتحقيق واسع وبارع من سعيد محمد نمر الخطيب.

ونحن نضيف على ما ذكر استناداً على ما ورد في كتاب (الأمثال ومصادرها في التراث) من كتب الأمثال في القرآن الكريم:

(كتاب أمثال القرآن) لأبي علي أحمد بن الجنيد الإسكافي المتوفى سنة ٣٨١هـ وكتاب (أمثال القرآن) لأبي عبد الرحمن السلمي النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦هـ، وكتاب (أمثال القرآن) لأبي حسن علي بن محمد الماوردي الشافعي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.

وهناك مخطوطات أخرى في أمثال القرآن تحتفظ بها بعض الخزانات والمكتبات العربية والأجنبية منها (الأمثال الكامنة في القرآن والسنة) للحسن بن عبد الرحمن القضاعي و(أمثال القرآن وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري) لنوري الحق تنوير.

ومن كتب الأمثال في القرآن المطبوعة حديثاً (أمثال القرآن) للدكتور محمود بن

الشريف، و(الأمثال القرآنية) لعبد الرحمن حسن حنبكة الميداني على ما أورد سعيد الخطيب.

وان جميع الكتب المؤلفة في الأمثال العربية العامة لم تغفل الاستشهاد بأمثلة القرآن لفظاً أو معنى، وقد قلّ اليوم مؤلفوها ومؤلفو الأمثال العامة، وتوجهت العناية عند البعض إلى الأمثال العامية وهو أمر لا بأس به، ولكن يبدو أن العربية الفصحى قد عقمت فلم يعد هناك من يحسن سبك الأمثال الجديدة وظل الاعتماد كله على القديم وما قبل في العصور العربية وعلى الأخص في الجاهلية وفي صدر الإسلام باستثناء القليل مما جدّ ويجدّ اليوم.

ما تنطوي عليه الأمثال

منها إشارة لقصة مشهورة حسبك أن تذكر اسمها كقصة (يوسف) و(نوح والسفينة) أو ذكر القصة بغاية الإيجاز كأن تقول مثلاً: مرّ ذئب من تحت جدار عال كان على سطحه خروف فشتم الخروف الذئب، فقال الذئب لم تشتمني أنت وإنما شتمني محلك، أو قصة تأتي بها بحذافيرها كإحدى قصص (كليلة ودمنة) مثل قصة (الثور والحمار) أو (الثيران والأسد) أو كلمة توجيهية كقول الإمام علي كرم الله وجهه إذ يقول (لا تستح من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه) أو الكلمة الدالة على الحكمة من قبيل قولك (الصبر مفتاح الفرج) أو أن تقول (رب ساع لقاعد)، ولا يقتصر المثل على النثر، وجميله أن يأتي شعراً لأن موسيقى الشعر تجعل له رونقاً أزهى من النثر، بالإضافة إلى الروعة التي لا يبلغها النثر كقولهم:

الناس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهي ولأم المخطئ الهبلُ

ومن أشهر النماذج للأمثال في الشعر قولهم:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه   تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

وقولهم:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

وقولهم:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم

وقولهم:

وحسبكم هذا التفاوت بيننا   وكل أناء بالذي فيه ينضح

وقولهم:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه
إذا كنت في كل الأمور معاتباً   صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

ومن أعذب الأمثال في الشعر أقوال لها مغزاها المعروفة في قولهم:

قالت الضفدع قولاً   فسرته الحكماء
في فمي ماء وهل يِنـ   ـطق من في فيه ماء

* * *

قال ابن آوى للدجاجة إنني   أهوى جوارك فهو خير جوار
قالت ولكني لدارك أشتهي   طول الزمان تباعداً عن داري

* * *

قال حمار الحكيم يوماً   لو أنصف الدهر كنت أركبْ
لأنني جاهل بسيط   وصاحبي جاهل مركّبْ

* * *

وقالوا: لا غرو إن تقدّم الجاهلُ في النادي على ذوي العلوم والأدبْ
(فقل هو الله) أني مؤخراً   بالذكر عن (تبت يدا أبي لهبْ)

وإذا أردنا أن نجمع الشعر الذي يصلح أن يؤتى به مثلاً في مختلف الأغراض لتجاوز المئات من الدواوين ويكفينا على ذلك شاهداً أرجوزة (الصادح والباغم) لابن الهبّارية وحده المحتوي على ألفي بيت يكاد يكون كله أمثالاً، ومن المؤسف أن تكون النسخة المطبوعة بالحجر والتي طبعت بالحروف في القرن التاسع عشر قد نفدتا، وقلت المخازن والمكتبات الخاصة التي حصلت على إحدى الطبعتين، وقد ظل في ذهني من (مقدمته)

من أيام الصبا قوله: هذا كتاب أدب وحكمة.

قضيت فيه مدَةْ   عشر سنين عدةْ
وإذا سمعت باسمكا   وضعته برسمكا
بيوته ألفان   وكلها معاني

ومما بقي من مضامينه في ذهني قوله:

لا تكثر العتابا   تنفّر الأصحابا
فكثرة المعاتبة   تدعو إلى المجانبة
ولا تكن ملحاحاً   لا تكثر المزاحا
فكثرة المجون   ضرب من الجنون

ومن أشهر الأقوال والحكم التي تصلح أن تكون مثلاً يأتي للموعظة، والحجة، والتذكير واجتناب المنكرات، إشعار طالما استشهد بها المستشهدون في كلامهم من قبيل قولهم:

ومهما تكن عن امرئ من خليقة   وإن خالها تخفى علي الناس تُعلمِ

وقولهم:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطئْ يعمر فيهرمِ

ويحسن الشاعر الذي سئم فقره وسكناه ببغداد تشبيه وجوده بالقرآن الكريم في بيت الزنديق إذ يقول عن بغداد:

أقمت فيها مضاعاً بين ساكنها   كأنني مصحف في بيت زنديق

ومثله قول آخر:

غير أني أصبحت أضيع في القو   م من البدر في ليالي الشتاء

ويشابهها قائل آخر إذ يقول عن بغداد:

ماذا الإقامة في (الزوراء) لا وطني   بها ولا ناقتي فيها ولا جملي

ومثل هذا وأحسن منه مما غاب عن ذهني نماذج من الأمثال في الشعر الذي يعد من أوسع أبواب الأمثال العربية، ومن أروع نماذج البلاغة الذي تنطوي عليه الأمثال ويتجلى فيه مدى العمق في إصابة الحكمة عند العرب ومفكريهم.

الكناية

والكناية هي باب آخر من أبواب المثل الواسعة، وهي كلام يذكر لفظه بالمعنى المتعارف لغة والمفهوم منطقاً ليس بلفظه وحده، وإنما هو كالإشارة مدلولها معناها وليس لفظها وقال أحد الشعراء:

أكني بغير اسمها وقد علـ   ـم الله خفيّات كل مكتتم

وبعبارة أخرى إن الكناية هي الكلمة أو الكلام الدال ذكره على غيره، ويضرب (المنجد) مثلاً لها بقوله (زيد كثير الرماد) كناية عن كرمه، وكثرة ما يطهى للضيوف من الطعام، ومن أجمل الكنايات أن عجوزاً شكت لعبد الملك بن مروان فقرها وانعدام طعامها فقالت له: (أشكو إليك قلة الفيران) قال املئوا بيتها طعاماً.

وأجمل الكنايات وألطفها سبكاً وبلاغة فيما يخص العلاقة الجنسية قول الله تعالى (أولا مستم النساء) سورة النساء ـ الآية ٤٦. وقوله تعالى (هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن) سورة البقرة ـ ١٨٧ ومن هذا البديع من الكنايات التي تقوم مقام المثل قول الله تعالى: (وإذا مروا باللغو مروا كراماً) سورة الفرقان الآية ٧٢، ومن روائع الكنايات وصية النبي بالنساء والإرفاق بهن قوله (رفقاً بالقوارير) وجاء في (موسوعة الكنايات البغدادية) لمؤلفه المحامي البحاثة عبود الشالجي قول الثعالبي في (لطائف المعارف) ٥٣ ـ ٥٤ إن البغداديين كانوا أول من لقبوا حكامهم وأمراءهم بالألقاب، وكنّوا بما يدل على صفاتهم حتى اشتهرت الكنية وأصبحت مثلاً فقد لقبوا (المنصور) بالدوانيقي لشدة بخله ولقبوا أحد وزرائهم (بدقّ صدره) لأنه كان يدقّ صدره بيده كلما حصل له شيء،

ولقبوا وزيراً آخر (بالوزير الزبيبي) لأنه كان يحمل الزبيب في جيبه.

ولقبوا الأمير محمد بن رائق أمير الأمراء (بأم الحسين) ولقبوا أخاه (بخديجة) ولايزال البغداديون حتى الآن يطلقون الألقاب على المشاهير بلغتهم العامية فتذهب مثلاً.

وعن شفاء الغليل ص ١٩٧ نقل الباحث المحامي عبود الشالجي أن البغداديين القدماء كانوا يطلقون على بيت الخلاء اسماً آخر هو (مروءة الدار) ويشير أحد الشعراء إلى ذلك قائلاً:

بيتٌ إذا ما زاره زائر فقد قضى أعظم أوطارهِ
وهو إذا ما جاء مستنطقاً (مروءة الإنسان) في داره

ويقول في (الكنايات البغدادية العامية) عن ابن فارس «إن الناس يكنون عن الشيء، فإذا فشت الكناية وانتشرت صارت إلى حد الاسم الأول الذي كني عنه فانتقلوا إلى كناية أخرى، فإذا فشت أيضاً واتسعت رأوا فيها من الوضوح ما يستوجب الانتقال إلى كناية أخرى، وهذا هو السبب في كثرة الكنايات عن الشيء الواحد «أخلاق الوزيرين ٣٨٧ هـ) ولذلك تكثر الكنايات للشيء الواحد ولم تعد تقتصر على شكل واحد وكناية واحدة.

ولا يسلم المثل في جميع صوره من الشعر، والكناية، والتشبيه، من البذاءة والفحش والكلمات النابية، وكان المؤلفون القدماء وحتى الفقهاء ورجال الدين لا يمانعون من إيرادها والتمثيل بها، ويقلدهم البعض من أدبائنا المعاصرين العرب، ويستهجنهم البعض الآخر، أما الغربيون فيؤيدون الإتيان بها والإفصاح عن القصص الخليعة برمتها وبدون مبالاة.

ويقول المحامي عبود الشالجي في مقدمته للجزء الأول (من موسوعة الكنايات البغدادية العامية) «وقد وجدت أن البعض من المؤلفين يتحامون إيراد اللفظ الذي تذكر فيه العورات تحرجاً، أو خوفاً من اللوم أو رغبة في وصفهم بالتقوى وأنا لست من رأي هؤلا، لأن إثبات الكل يمكّن الباحث من الاطلاع اطلاعاً تاماً على واقع الحال. أما

إثبات البعض وترك الباقي فهو افتئات على الحقيقة التي يجب أن تحترم، ومن دواعي السرور أن المؤلفين القدماء كانوا من رأيي، فإنهم أثبتوا ما قرع أسماعهم، وما وقعت عليه أبصارهم، ولم يغفلوا منه شيئاً، فنقلوا إلينا واقع عصرهم نقلاً صحيحاً صادقاً».

ويؤكد هذا الرأي قول الحصري القائل «لا تنظر إلى النادرة نظر المنكر فتعرض عنها صفحاً وتطوي دونها كشحاً إذا وقعت فيها كلمة قذف أو لفظة سخف».

صحيح أن المؤلفين القدماء ما كانوا يتحاشون إيراد الكناية النابية والقول المفحش نظماً كان أو نثراً، ومنها الأمثال البذيئة، لأن القراءة والكتابة لم تكن منتشرة بين النساء حتى لقد كان لسان حالهن يقول:

هنّ الحرائر لا ربّات أخمرةٍ　　سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وكانت القراءة والكتابة مقتصرة على الجواري والمغنيات، لذلك لم ير هؤلاء المؤلفون بأساً من أن يرسلوا الكلام على عواهنه، ويطلقوه بدون أي حذر واحتياط، أما اليوم وقد عمّت القراءة والكتابة جميع النساء، فلم يبق ما هو محتجب عنهن، ومع ذلك فإن أكثر المؤلفين صاروا يحتاطون أكثر، وقد قام «جرجي زيدان» بتشذيب وتهذيب (ألف ليلة وليلة) حتى نقاها من كل فحش، ولم يكن الفحش أصلياً في كتاب (ألف ليلة وليلة) وإنما هو من المزيدات التي أدخلت على الكتاب في العصور التالية.

ومن انتشار التعليم بين النساء والتوسع في القراءة، فقد عرضت عليّ إحدى السيدات العربيات المثقفات، ذات يوم ترجمة لها لكتاب (دي كامرون)، لبوكشيو الايطالي، وهذا الكتاب مجموعة قصص موغلة في الفحش وقد ترجم إلى جميع اللغات وتحاشي ترجمته أدباء العرب باستثناء المرحوم كامل الكيلاني الذي لم يترجم منه إلا المستساغ من القصص السليمة، أما هذه السيدة فكانت قد أتت على ترجمته بعجره وبجره، فماذا يفيد بعدُ التكتم والتخفي وهذه كتب الأقدمين تفيض بالفحش والبذاءة، ولا سيما في الأمثال التي يمنعني الاحتشام أن آتي بمثل لها هنا.